الموضوع الرابع

آداب قراءة القرآن بالتغنى وتحسين الصوت

والحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه: عن النبى ﷺ قال: «ما أذن الله لشىء كما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» .

[الحديث رواه الإمام البخارى (٧٠٤٤) ومسلم (٧٩٢) واللفظ للإمام مسلم]

وهذا حديث شريف يدخل فى قاعدة من قواعد الأداء والترتيل والحفظ للقرآن الكريم وهى التغنى بالقرآن، فالتغنى بالقرآن داخل فى إطار المحبة أى: القضية كلها قضية محبة، وهى أنك تحب المصحف، تريد أن تعبر عنه بأى شكل، بكل صورة، بأى حال تريد أن يستمع جميع من فى الكون لتلاوتك .

«ما أذن » ما استمع الله لشىء كما استمع «لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»، يتغنى أى: يتفاعل بقلبه، بصوته، يخرج أفضل مما فى قلبه، وأفضل مما فى صوته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

أفضل الحديث معناه أفضل ما يستمع إليه الله عز وجل، أفضل شىء يحب الله جل فى علاه أن يستمع إليه منكم، ما هو؟ والمعنى كما يقول الشارح أى ما استمع الله لشىء من كلام الناس كما استمع الله لمن يتغنى بالقرآن أى يحسن به صوته أى يحاول أن يستخدم مقامات الصوت فى التفاعل مع القرآن الكريم، يُدَرب صوته على القرآن الكريم بكثرة ذكر الله عز وجل، وإذا كان صوت

أحدهم خشنًا، ويريد أن يتغلب على هذه الخشونة فى صوته، فإنه يتغلب عليها بكثرة ذكر الله تعالى .

إنى الآن جهرت بالقراءة، ولكننى ما تغنيت بها، وما رتلتها، فكيف أرتلها؟ وكيف أتغنى بها؟

هل الجهر بالقرآن يكون مثل قراءة أحدهم عندما يقرأ فى صحيفة (قال فلان، وقالت فلانة، وصرح فلان، وصرحت فلانة)؟

المطلوب قراءة القرآن بالجهر مع التغنى، أما الجهر وحده بصوت عالٍ، بصوت مرتفع، ليس هذا، وسنأخذ أمثلة أخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

كالذى يخطب على المنبر ويقولها بطريقة التوجيه والتحذير وليس بالترتيل، أحسنت لقد بلغت وجهرت لكنك ما تغنيت، وكيف أميز بين كلام الخطيب وبين كلام الله تعالى؟ وبين كلام النبى العظيم وبين كلامه هو أو السلف أو الخلف، كيف أميز؟

التغنى بالقرآن معناه أن الإنسان عندما يأتى عند آية وهو يقرؤها إذا كان فى درس أو فى خطبة وعنده قدرة على هذا فإنه يؤثر تأثيراً قوياً من ناحية، والناحية الثانية أن آيات القرآن العظيم تستقر فى القلوب .

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] .

هكذا كان النبى العظيم ﷺ يتعامل مع القرآن الكريم بترتيل القرآن، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتخصصون فى هذا، فسيدنا أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه كان صوته نديًا، وأعطاه الله تعالى مزمارًا من مزامير داود عليه السلام

فسيدنا داود عليه السلام كان مُسبحًا، وكان ذاكرًا، وكان بكَّاءً، وكان أوابًا كما ذكر الله تعالى جل جلاله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ:١٠]، لأنه كان يخرج إلى الجبال ويسبح، وكلها تسبح معه .

أى ولقد آتينا داود نبوة، وكتابًا وعلمًا، وقلنا للجبال والطير: سبِّحي معه، وألنَّا له الحديد، فكان كالعجين يتصرف فيه كيف يشاء.

بالذكر وبالتلاوة كما فى قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] .

أى اصبر أيها الرسول على ما يقولونه مما تكره، واذكر عبدنا داود صاحب القوة على أعداء الله والصبر على طاعته، إنه توَّاب كثير الرجوع إلى ما يرضى الله عز وجل.

إذًا فإن جميع الكون كان يسبح مع سيدنا داود؛ لأنه كان يتغنى ويرتل بما أنزل الله عليه كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، والزبور عبارة عن أدعية وثناء على الله عز وجل وليس فيه أحكام، والزبور بخلاف التوراة وبخلاف الإنجيل، وهو أشبه بصحف سيدنا إبراهيم عليه السلام .

فسيدنا داود كان له صوت ندي، صوت جميل؛ لأن الكتاب الذى تنزل عليه وهو الزبور كان عبارة عن أدعية وثناء على الله عز وجل.

وعندما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] أى: وقوَّينا له ملكه بالهيبة والقوة والنصر، وآتيناه النبوة، والفصل فى الكلام والحكم.

لماذا يارب؟ لأنه كان أواباً، وكذلك شددنا ملكه أى قوَّينا ملكه بكثرة الذكر.

إن الذى يجهر بالقرآن أو يتغنى بالقرآن يعبر عن حبه للقرآن، وعن استمتاعه بالقرآن الكريم بصوته ففى حديث آخر عن البراء بن عازب ﷺ عن النبى ﷺ قال: « زيِّنوا القرآن بأصواتكم» [رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه].

«زيِّنوا» أى القرآن يحتاج إلى زينة، وإلى تزيين، وإلى تفاعل معه، عندما يسير أحدهم بجوارك وأنت تقرأ القرآن لابد وأن يعرف أنك تقرأ القرآن، كيف؟ بالأداء، فعندما يدخل عليك وأنت تقرأ القرآن لابد أن يعرف أنك تقرأ قرآنًا وليس كلامًا عاديًا .

ومعنى الحديث: اشغلوا أصواتكم بالقرآن، والهجوا به واتخذوه شعارًا وزينة .

ومعنى الهجوا به: انشغلوا به فى جميع الأحوال، يكون القرآن الكريم هو التجارة التى أنشغل بها، التجارة التى أعيش بها (تجارة رابحة).

والقاعدة التى نعمل بها هى تزيين القرآن الكريم بالصوت، ولكن بعض الناس يسرف فيها أى يبالغ فيها خاصة هؤلاء الذين يبدءون الحفظ فى الكبر، فيأخذون جميع الأحكام على أنها إظهار وإخفاء وإقلاب، أو جميع المدود على أنها مدود طويلة أو قصيرة، أو جميع الحروف على أنها مفخمة أو مرققة، وهؤلاء فى البداية يُعذرون؛ لأن كلا منهم لم يعلمه أحد قواعد الأداء، لم يجد من يُفهمه قواعد الأداء إلا حديثًا، لكن مع التقدم فى التلاوة، ومع التقدم فى المتابعة، فإنه يميز بين ما هو صحيح وما هو بخلاف هذا .

دائماً الإنسان فى تعلم القرآن الكريم يكون عنده (شغف) يريد أن يعرف جميع الأحكام: الإدغام، والإقلاب، والإظهار، وإدغام المتماثلين، والمد الواجب، والمد المدعم بالسكون، ولكن ينبغى أن يعرف مع الأداء حكم مداخل الآية؛ لأجل هذا فإنه لا ينبغى المبالغة فى الأحكام.

يعتقد بعض الناس أن من تزيين القرآن الكريم لأصواتهم الخلط بين قراءات كثيرة مرة واحدة، فنحن الآن نقرأ قراءة حفص عن عاصم بطريقة حفص، ولكن فى بعض الأحوال نحتاج فى التفسير إلى التوضيح بقراءة أخرى، وعندما أقرأ فإنه يجب علىّ أن أقرأ بقراءة واحدة .

فمثلا: يأتى أحدهم يصلى بالناس ويقول فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] .

وبدلاً من أن يقول: يُبَشِّرُ يقولها يَبشُر

ويَبشُر "الياء" عليها فتحة و"الشين" عليها ضمة هذه قراءة صحيحة، ولكن لا ينبغى أن تصلى بأكثر من قراءة؛ لأن هذا يردك، وهذا يردك والناس تعتقد أن هذا خطأ، وأنت تقرأ قراءة هى فعلاً صحيحة، ولكن لا يجوز أن تمزج القراءات فى مجلس واحد، بمعنى إذا بدأت الدرس بقراءة (ورش) فتستكمل الدرس كله بورش، وإذا بدأت بطريقة حفص عن عاصم تستكمل الدرس كله بطريقة حفص عن عاصم، وهكذا مع باقى القراءات، فبعض الناس يعتقد أنه لكى يحسن صوته فإنه يلون فى القراءات، ويخرج من قراءة إلى قراءة أخرى وهكذا، وهذا إذا كان مع الترتيل فهو لا يصح.

و لذا سنرى الآن أن القراءة لها أصولها، ولها قواعدها كما فى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء:٥٦] .

إذا كان الإنسان معه ميزان حساس، ويريد أن يضع هذه الأحكام التى يقرأ بها الشيخ على هذا الميزان لوجدها منضبطة تماماً، أى: المد المنفصل فى جميع الأحوال بنفس المقاس فى المد، والمد المتصل بنفس المقاس فى المد، والحرف المرقق بنفس الرقة، والحرف المفخم بنفس التفخيم المطلوب.

لا أريد أن أقدم لكم هذه المعلومات على أنها معلومات أكاديمية أو معلومات صعبة، فكل ما أفعله هو معرفة المسميات أن هذا إدغام، أو هذا إدغام بغنة.. المهم أن تقرأ قراءة صحيحة .

الميزة التى نشير إليها دائمًا، وهى (تماثل الأحكام) أى أن القارئ إذا بدأ بحكم لا بد أن يستمر هذا الحكم فى جميع تلاوته لا يحيد عنه أبدًا، ولا يزيد عليه ولا ينقص، وهذه السمة لا يصل إليها الإنسان إلا إذا كان محترفاً مثل البنَّاء عندما يبنى جدارًا نجده منضبطًا ومُنسقًا، وليس هناك أشياء زائدة، ولا أشياء ناقصة، ولا أشياء مزعجة.

نقول: هذا رجل عنده حسن أداء، ماهر، متمكن،محترف شارب الصنعة، ويحب الصنعة، وهذا يحب القرآن العظيم، والخيرية كلها فى تعلم القرآن مع ضبط تلاوته وتجويده، مع حسن الأداء وتمام المعايشة، والصدق فى الإجادة والدقة فى التلاوة.

اللهم زدنا تعلقًا بالقرآن العظيم، واجعل يا ربنا قلوبنا معلقة به، ومقبلة عليه، ولا تحرمنا نوره، ولا بركته، ولا هدايته، يا أرحم الراحمين.